

شعر :
إلياس قنصل

رباعيات مختارة

منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

السلسلة الشعرية « ٥ »

رباعيات مختارة

شعر :
إلياس قنصل

الطبعة الثانية

شعبان ١٤٠٢ هـ
مايو ١٩٨٢ م

منشورات
دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض ص.ب : ١٥٩٠
ت : ٤٧٧٧٢٦٩

الغلاف من اعداد الفنان المرحوم : عصمت البلك
اللوحات الداخلية : من اعداده بالاشتراك مع الفنان
محسن منصور

الخطوط بقلم محمود حسن بكير الخطاط

رباعيات مختارة

كلمة الناشر

لنشر هذه الرباعيات المختارة ، قصة ، لابد ان تقص من بدايتها ، ليعلم ابناء العربية ، انه ليس بين ابنائها حدود ولا قيود ، وانه لا يبعد العربى عن العربى شرق ولا غرب ، وان اللغة العربية هى الجسر الذى يمتد بينهم ، ليصل بعضهم بالبعض الآخر ، وان هذا اللسان ينبغى ان يظل حيا ، وان يحرصوا عليه بقدر حرصهم على الحياة ذاتها ، لأنه هو حياتهم .. وان هذه الكلمة لتكون آكد ما تكون لأبناء المهاجر العربية ، حيث يخشى على هذا اللسان ان ينقرض هناك .. وحينئذ يتحطم الجسر .. وتفكك العرى ، وتنفصم الآصرة ..

وما لى حاجة الى مثل هذا الاستطراد ، لولا ان فى الصدر نفثة مصدور كان من حقه ان ينفثها لأقل بادرة .. والا فلمثل هذا القول مجال من حقه ان يطول ، وفى غير هذه الكلمة المحدودة ..

كانت البداية بينى وبين الشاعر الكبير (إلياس قنصل) ، رسائل متبادلة ، جاءت فى آخريات سنيه .. وكان من نتيجتها أن أرسلت اليه بعض ما نشرت من مطبوعات صدرت فى سلسة (المكتبة الصغيرة) أو شقيقتها الصغرى (السلسلة الشعرية) ، فكان أن تلقيت منه فى رسالته المؤرخة ١٧ نيسان ١٩٨٠ ، عبارة شكر رقيق ، جاء بعدها ما نصه :

« لدى مخطوطة شعرية عنوانها رباعيات جديدة » وهى تضم حوالى (٢٠٠) رباعية نظمتها فى أوقات مختلفة ، وقد نشرت قسما صغيرا منها فى طبعة نفدت نسخها منذ ٢٤ سنة فهل فى وسع (المكتبة الصغيرة) ان تتولى طبعها ونشرها ؟ »

وكان ان كتبت اليه مرحبا كل الترحيب برباعياته ، فهو شاعر شهير من شعراء المهجر ، له مكانته ، الى جانب انه يحمل مشاعر نبيلة تجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانه طالما أعرب عن تلك المشاعر كلما واتته مناسبة ..

وتلقيت الرد فى رسالة أخرى من بوينس أيرس فى ٨/٩/١٩٨٠ م يقول فى مستهلها :

« رجعت البارح من سفرة الى داخل البلاد ، ألقيت اثناءها عدة محاضرات باللغة الاسبانية عن حضارة العرب قديما وحديثا ، كان لها الوقع الحسن فى الأوساط المحلية الراقية » .

ثم يردف :

« وها أنا أعود الى تناول موضوع الرباعيات ؛ أضم الى رسالتى هذه مائة منها لتتولى طبعها بعنوان « رباعيات مختارة » .

وهكذا استقرت الرباعيات على مائة بدلا من مائتين .. واستقر اسمها (رباعيات مختارة) ، عوضا عن (رباعيات جديدة) .

وقد لبيت طلب الأديب المهجري الكبير ، فأخذت فى اعداد رباعياته للنشر ، وهيأتها لتأخذ دورها ضمن (السلسلة الشعرية) ، وجهدت فى اخراجها ، على أجمل ما استطيع من اخراج ..

ولم يك بيننا عقد مكتوب .. فانما هو الحب يحكم طرفين ، أولهما أديب شاعر ، والآخر من هواة النشر ..

ومرت أيام .. كنت احتشد فيها لاخراج الرباعيات على ما يبهج خاطر الأستاذ إلياس ، ويعمل فيها أكثر من فنان بين خطاط ورسام .. وكان لابد أن اتذرع بالصبر ..

وكان أن ابطأت على رسائل الأستاذ الشاعر .. وخشيت ان يستبطىء الأمر ، فكتبت اليه سائلا عن أحواله وأخباره .. شارحا الخطوات التى تمت حيال رباعياته ..

فعلت ذلك في أواخر مايو ١٩٨١ م
وانتظرت الجواب ..
ولكن الصمت ساد ..

وبينما كنت اقضي اجازة قصيرة مع أسرتي في مدينة هيستنجس البريطانية ، على ساحل المانش ، وأزجي فراغي بقراءة مجموعة من المجلات العربية ، بينها مجلة (الثقافة) التي تصدر في مصر ، وهي مجلة أجد فيها نسمات بليلة من (الرسالة) الآفلة ، رعي الله عهدها المغداق ، وأجد بين كتاب هذه بقية من كتاب تلك ..

بينما كنت اقرأ عدد مايو منها .. وكنت آنذاك في يونيه ، وجدت فيه نعي الشاعر المهجري الكبير (إلياس قنصل) نزيل بوينس ايرس في الأرجنتين .. وليس في الخبر شيء عن تاريخ وفاته ، وان اشتمل على تعريجة عاجلة على أهم اصداراته في الشعر والكتابة .

ولكن العدد ذاته ، حمل كلمة رثاء ، من قلم الأستاذ الكبير (محمد عبدالغني حسن) ، وهو بعض تلك البقية الصالحة التي أعني من كتاب (الرسالة) ، كما هو دليل حي على ان الوفاء بين الناس لايزال حيا .. وكما هو معروف ، فان للأستاذ محمد عبدالغني حسن عناية واهتماما كبيرين بالأدب المهجري ، وله بأصحابه روابط وصداقات ووشائج وفاء ..

وعلمت من كلمة الرثاء هذه ان الشاعر الكبير قضى نحبه في ٢٠ مارس ١٩٨١ م

منذ ٢٠ مارس ، وانا لم اعلم عن وفاته .. ؟!
يا ضيعة الأدب بين قومه !

لاشك أن الأدب العربي فقد بفقده أديبا كبيرا ، وشاعرا جهيرا .. كما هوى بوفاته نجم لامع من نجوم الأدب المهجري ..

وقد حدثنا الأستاذ (محمد عبدالغني حسن) في مقاله ذلك ، أن

دواوين الشاعر المطبوعة ثمانية منها (رباعيات قنصل) ، و(النبي العربى الكريم) و (ألحان الغروب)

وحدثنا ، فيما حدث ، أن ديوانه (النبي العربى الكريم) يمثل أجمل شعر قاله مسيحي فى نبينا محمد بن عبدالله عليه صلوات الله وسلامه ، وأنه صدر فى الأرجنتين بدون تاريخ ، ولكن تاريخه الحقيقي هو سنة ١٩٦٧ م .

لقد أسيت لفقد هذا الشاعر العربى الكبير ، وازددت أسى لأنه لم يشهد إخراج ديوانه هذا ، على يدى ..

لقد رأيت ، فى اخراج هذا الديوان ، وفيما بذلته فيه من جهد — على قلته فى حقه — وجها من وجوه تكريم شاعر عربى فحل ، وشاعر مهجرى ، حفظ اللغة العربية وشعرها ، رونقها فى مهجره البعيد ، بعد أن انحسر عنها ذلك المد الدافق الذى استهله المهاجرون الأوائل ، كما انه تكريم لشاعر أحب محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فامتدحه ، باطيب ما يكون المديح ، يأتى من غير اتباعه ، وان من واجبنا — معشر المسلمين — أن نرد له بعض تحيته ..

اننى لسعيد — حقا — حينما أضع بين يدى القراء ، هذه (الرباعيات المختارة) ، وبينها الكثير من الرباعيات التى لم تنشر من قبل ..

ولا أود أن يسبق لظن قارىء ما ، اننى أنشر هذه الرباعيات ، لمجرد أنها لشاعر كبير .. ولكننى أفعل ذلك مقتنعا بجودتها ، بل بروعتها .. وفلقد حلق فى بعضها تحليقا ساميا .. وخرج بها من همومه ، أو هموم غربته الى هموم العرب جميعا ، فعاش وطنه فى قلبه .. ووطنه هو الأمة العربية جمعاء .. ولو طلب الي أن أختار نماذج ممتازة من هذه الرباعيات لأوردها شواهد على ما أقول ، لما وسعنى ان أختار ، ولأوردتها جميعا .. اما اننى لن أفعل ذلك مرتين ، فساكتفى بأن أقدمها جميعها للقارىء العربي ، بعد هذه الكلمة ..

هانذا أقدم لك ـ أيها القارىء الكريم ـ بطريقة عفوية هذه الرباعيات لكي تتأملها بإمعان . وتذهب مع الشاعر الى الآفاق التى طاف بها خياله . عما يولده الفقر والحاجة من مآسى اجتماعية أو مذهبية :

خف دمــوع الفقــير يا كانز
الأمــوال ، يا من يخيفــه الاحسان
قد يحــول الشقـــاء يأســاً أثيما
فيمــوت الضمــير والوجدان
كل فوضى تحمــل النـــاس منها
باهــظ الشر اصلهـــا جوعان
ليس بــين الفقــير والسجــن الا
خطــوة أمــر بهـــا الشيطان

وبعد ..

فقد قرأت فى احدى الصحف ان هناك من يفكر فى اصدار (الديوان الكامل) لهذا الشاعر الكبير ، وان ذلك لمما يسعدنى حقا ، بل إن ذلك بعض حق الشاعر الكبير على محبيه ..

وللتاريخ اذكر ان من أجود ما قرأت فى المراثى العصرية ، تلكَ المرثية الباكية المؤثرة المحلقة ، التى قالها الأستاذ الشاعر المهجرى ايضا (زكى قنصل) وهو أخو شاعرنا الياس ، وقد نشرتها مجلة (الأديب) فى عدد يونيو ١٩٨١ ، ومطلعها :

لم يغــب ـ رغــم بعــده ـ عن عيانى
إنـــه بـــين مقلتـــى وجنانى !

ومن خير ما قرأت عنه . مقالة ضافية نشرتها مجلة (شئون عربية) للأستاذ (فريد جحا) .

وقبل أن اختتم هذه الكلمة .. أود أن أتوجه بالشكر لأخوة الشاعر الياس ، الذين اجازوا لى المضي فى نشر هذه الرباعيات ، بعد رحيله ، فلهم على ذلك أطيب الثناء .

عبدالعزيز الرفاعى

صاحب دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض فى ١/٣/١٤٠٢ هـ

ـ ١ ـ

إن لم تجدْ من صروف الدهر مدرسةً

ظلّت علومك بين الهذر واللعبِ

وما يفيدك نصح أنت سامعه

كما يفيدك ما تلقى من النوبِ

فاجمعْ نبالك ، فالدنيا مكافحة

والزهد يحمل ذلَّ الخوف والهربِ

في كل شيءٍ ، إذا أمعنتَ ، فلسفة

هيهات تقرأها في أعظم الكتبِ

ـ ٢ ـ

نحن شئنا من الحياة سبيلاً

مطمئناً يرضى به الأغبياءُ

واتكلنا على الخيال فما أجدى

خيال، ولا أفاد رجاءُ

وحملنا على العدى شعراء

فسرى في صفوفنا الإعياءُ

نكبة القدس ـ نحن كنّا الضحايا

أفيَجنى دروسَك الأبناءُ؟

- ٣ -

جَـرِّدْ طريقَ الناسِ من نكباتهِ

تغدُ الحياةُ من الفتورِ جهنّما

ولربما رام الزمانُ لك الأذى

فقضى عليك بأن تعيش مُنعَّما

ومتى رمتْك الحادثاتُ عبوسةً

بنبالها ، فاضحك لها متبسما

ما في بكائك إن فرحتَ ، بطولةٌ

إنَّ البطولةَ أن تُضامَ وتبسما



- ٤ -

نفوسُك إذ تشكو الزمانَ حقائقٌ

تُبيِّنُ منها شحُّهُ وسخاؤهُ

فللدّهرِ إنصافٌ نراهُ لجهْلنا

وأهْوائِنا، ظلماً يمرُّ بلاؤهُ

ورُبَّ غنيٍّ نفسُهُ نفسُ مجرمٍ

يكفُّ الأذى عنّي وعنْكَ ثراؤهُ

ورُبَّ فقيرٍ هانئٍ رغمَ فقرِهِ

إذا باتَ ذا مالٍ تلاشى هناؤهُ

ـ ٥ ـ

لمّا رأيتُ فِعال الناس مثقلةً

بالمين حولي، وداء الكذب منتشرا

وقيتُ نفسي من عدوى تغافلها

بالبعد عن كل نفسٍ عزُّها اندثرا

قد تفسد البيئةُ الرعْناء أدمغة

بها تغنّى لسانُ الدهر مفتخرا

إذا حكمت على الحر الكريم بأن

يعيش بين لئامٍ، عاش منتحرا

- ٦ -

لا تلمْه إذا أضاع مساعيك

لديْه ، وكنت ترجو جزاها

رمتَ إصلاحه وعينُك لا تلمح

تيّار نفسِه وهواها

كلُّ داءٍ له علاج وما ينفع

في علّةٍ يضرّسواها

كم نفوس إذا نخلتَ عليها

بالإهانات ، لا تنال رضاها

– ٧ –

خلّوا التحسر والبكاء وعالجوا

أمراض أنفسكم بلا إشفاقِ

فشل المقصّر أن عزاه لغيره

فشل يضاعفه طلاء نُفاقِ

إنّا خسرنا القدسَ، وهي وديعة

في عهدنا من سؤدد الخلّاقِ

ما كان من وهن السلاح ضياعها

بل من شيوع الذلّ في الأخلاقِ

- ٨ -

عبثًا تحاولُ أن تطهّر أنفسًا

من طبعها، فالنفس لا تتغيرُ

والصقل يحْدِث في القشور مرونةَ

لكنه في اللبِّ ليس يؤثرُ

ما أسهل التمييز بين شهامة

هي فطرة، وشهامة هي مظهرُ

يخفي الكريمُ عن النواظر فضلَه

أمَّا اللئيم فبالرذائل يفخرُ

- ٩ -

حتامَ نستعطي الغريبَ دروسَهُ

وتراثنا أسمى الذي في درسِهِ؟

نخشى مناهلَنا ونرفض رِفدها

متهافتين على ثُمالةِ كأسِهِ

إنّا طردنا الأجنبيَّ ولمْ نزلْ

بعقولِنا وقلوبِنا في حبسِهِ

والشعبُ لا يرتكز استقلالُهُ

حتى يحرّرَ نفسَهُ من نفسِهِ

ـ ١٠ ـ

أنا لا أجور على البخيل معنّفًا

لكنني أرثي له خذلانا

يقضي الحياةَ على بساطٍ شائك

من خوفه، ويكابد الحرمانا

أما الكريم فواجد من نفسه

ثقةً تعلِّم كفَّه الإحسانا

والبخل ذل في النفوس فحيثما

تلقى البخيل وجدتَ فيه جبانا

ـ ١١ ـ

لا ترمِ شعبَك بالخمول فإنه

عهد تراه عن قريب زائلا

أقلامُ قادته رمتْه بدائها

فغدا، كما شاؤوا، مريضًا ناحلا

كم موقف فيه الصراحة واجب

جعلوه أشراكًا له وحبائلا

شرٌّ من السمِ الزعاف يراعةٌ

ترثي القتيل كما تحيّي القاتلا

- ١٢ -

ماذا ترى في الرقص؟ قلتُ خلاعة

تخفي لأخلاق الشباب مزالقا

إن كان فيه من الكياسة مظهر

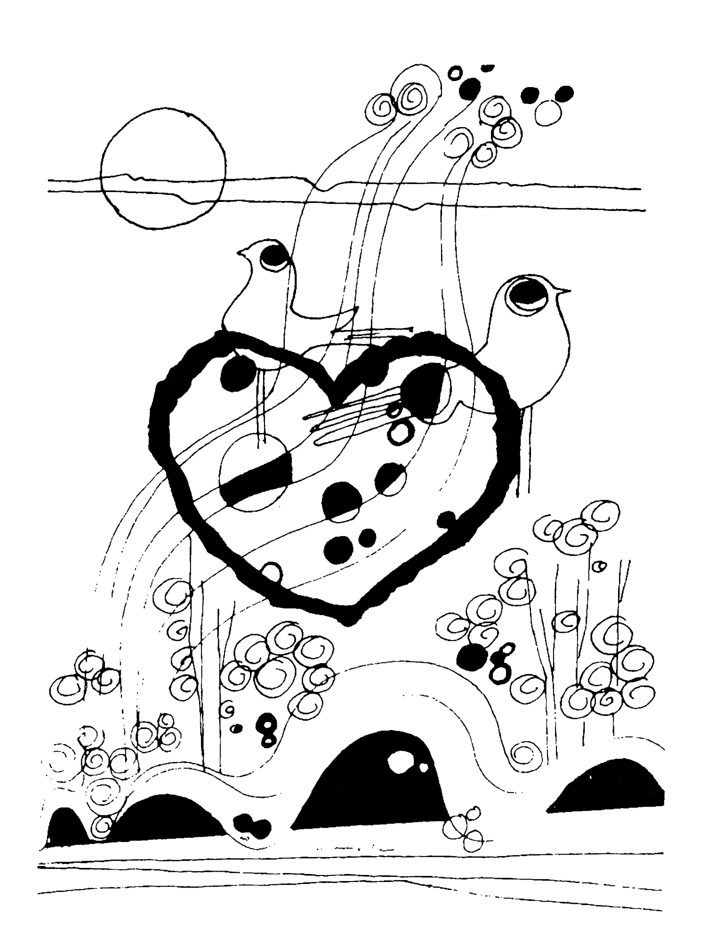
بات الحياء من الكياسة طالقا

لن يمنع التهذيبُ نزوةَ مهجةٍ

قد هيّجت باللمس قلباً خافقا

ما في اختلاج الراقصين رياضة

إنّ الرياضة لا تكون تعانقا



- ١٣ -

أسفت لصمته وله يراع

جميل بيانه سحر الجموعا

ولو أبصرت شدة ما يعاني

من الأيام، أرخصت الدموعا

إذا سلم النبوغ من الرزايا

فكيف يطبب الفقر الوجيعا؟

وأغرب مشهد نصب ثمين

أقيم لعبقري مات جوعا

أرسلتَها شعواءَ لم أعثر على

سببٍ يبرر أن تؤَجج نارها

فسهوتُ حيناً عن جهادىَ باذلاً

أقصى الجهود لأتّقى أضرارها

هذا الخصام جناية ، وحقوقنا

للمجد واثبة تفكُّ إسارها

سيانِ فى عرف البلاد مناصر

أعداءها ومحارب أحرارها

رأيت الأماني كلها في شهادة

مديد الغنى والجاه بعض ثمارها

فلم تسع للعرفان جهدك، إنما

بذلت المساعي ضارعاً لادّخارها

فلا يرتفعْ بالزّهو رأسك، فهي لا

تشارك إلّا عالماً بفخارها

وكم من شهادات يغرُّ جلالُها

وقيمتها ـ النقشُ الذي في إطارها

- ١٦ -

شغلتم عن قصائده بهزل
تفاهته لجهلكم تروقُ

فلا تتعجبوا منه إذا ما
طواه عنكم بعْدٌ سحيقُ

يضيع الحسن حين يموت ذوقٌ
وإن فسد الحجى ديستْ حقوقُ

وكيف يطيب للشحرور شَدوٌ
وسامعه يلذُّ له النهيقُ؟

— ١٧ —

تلوم الأغنياءَ ملام بُغضٍ

دفين، ظاهر منه عداكا

وتقسم إن غدوتَ أخا ثراءٍ

ملأت الأرض ريًّا من نداكا

ومن يدري؟ فقد تمسي غنيا

ولا تسخو، ولو بترتْ يداكا

فبذل المال أسهل ما تراه

ولكن حين يبذله سواكا

– ١٨ –

أنفتُ من التجديد حين وجدته

كلامًا عليلًا تافهًا دون مضمونِ

وقلتُ: إذا أعيى الذكيَّ غموضه

فكيف جلا أسراره كلُّ مأفونِ؟

وهبْه لمن يأتي، فلمْ يسترونه

بألف رداءٍ ضائع اللون مدهونِ؟

إذا حُسب التجديدُ معنى مشوها

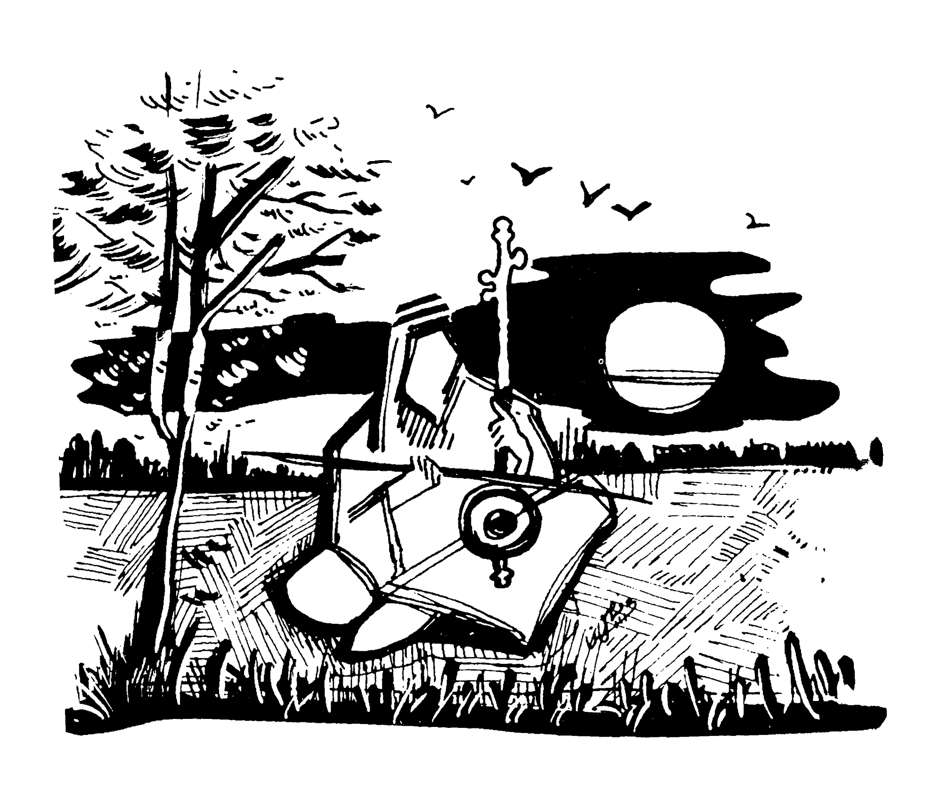
فأعظم تجديدٍ هراءُ المجانينِ

لا تنخدعْ بمعونة من ودِّه
هذا الوداد عميمة أضرارهُ

أوَمَا كفى ما قد حملتَ من الشقا
حتى تقلّص عن ربـاك شعارهُ؟

يا مستديناً من عدوِّك بدرة
في ظلها يتمرن استعمارهُ

للأجنبيِّ وسيلتان: سلاحهُ
فإذا نبا، يوم الوغى، فنضارهُ



– ٢٠ –

منح التفوق ما في بابه حرس

لكنه درب أرزاء وأخطارِ

فالناس يؤلمهم مرأى النبوغ، ولو

تقدموا نحوه بالمدح والغارِ

كم من أديبٍ قضى والجوع يأكله

ومجرمٍ حوله نهر الغنى جارِ

العبقرية حرمان وتضحية

وليس يخلد إلا كلُّ جبارِ

تروج الرذائلُ بين الورى

لضعف يشل القوى العاقلَهْ

فلو صحَّ في المرء تفكيره

لناءَ عن الخطط الباطلَهْ

وربَّ خليٍ يريد الزواج

ويخشى تكاليفه الشاملَهْ

ولو صان ما يهب العاشرات

لَربّى به أسرةً فاضلَهْ

دعمناهم فخانونا جهارا

بإخفاء المآسي والذنوبِ

ولو كشفوا مكان الضعف هانت

على الأقلام تصفية الخطوبِ

فلا تسأل عن الفشل الفوافي

ولا تلقِ الملام على الأديبِ

إذا كتم المريضُ الداءَ عمدًا

فأيُّ العارِ يلحق بالطبيبِ؟

ـ ٢٣ ـ

خفْ دموعَ الفقيرِ يا كانزَ

الأموالِ، يا من يخيفه الإحسانُ

قد يحولُ الشقاءُ يأساً أثيماً

فيموتُ الضميرُ والوجدانُ

كلُّ فوضى تحمَّلَ الناسُ منها

باهظَ الشرِّ أصلُها جوعانُ

ليس بين الفقيرِ والسجنِ إلّا

خطوةٌ آمرٌ بها الشيطانُ

- ٢٤ -

تحاول إرضائي بمدحي مغاليا

فاسمع صوت الذم في كاذب المدحِ

إذا قلتَ إني أريحيٌّ، ولم أكن

فقولك تمهيد لتسخر من شحي

ولو خيّروني بين حسنٍ مزيّف

وقبحٍ صحيح، ملتُ فورًا إلى القبحِ

وأحسبني في دفتر الحق خاسرًا

إذا كان تعداد الأضاليل من ربحي

ـ ٢٥ ـ

إني لأحزن للمغرور تنفخه

من التكبر ريحٌ ملؤها وضرُ

وليس يعجبني من كان متصفاً

بالفضل، عن فضله يغضي ويعتذرُ

إعرفْ مقامك، يعرفْه سواك، ففي

إنصاف نفسك سفر العدل مختصرُ

إن التكبر مذموم ومحتقر

وفي التواضع وجه الضعف مستترُ

يتطاولُ السفهاءُ علماً منهمُ

إن الكريم مع اللئام محيّرُ

يأبى النزول إلى دناءتهم، ولا

يرضون أن يرقوا إليه ويطهروا

والحرّ يخشى أن يُمسّ إباؤه

أما الزنيم فأيّ مجدٍ يخسرُ؟

عار عليك إذا انكسرتَ لسافلٍ

وإذا انتصرتَ فإن عارَك أكبرُ

- ٢٧ -

يا راقصين على أمجاد أمتكم

ومنزلين عليها العار والمحنا

لا تحسبوا أنها تنسى خيانتكم

وإن تناستْ وأخفتْ ثأرها زمنا

خُزُّ الغريب الذي يغشى مقاعدكم

سيستحيل على أشلائكم كفنا

كل الذنوب لها عذر ومغفرة

إلّا الذنوب التي تستعبد الوطنا

ـ ٢٨ ـ

عجبنا منك تُمعِنُ في أذانا

ونحن نردّ عنك الحانقينا

ورثتَ، فلا تباهِ الناسَ، واشكرْ

شفيعيك: الولادةَ والمنونا

وكان أبوك شهماً أريحيّاً

فكيف نشأتَ كَزَّ النفس دونا؟

فإمّا أن تصير فتىً كريما

وإمّا أن نسيءَ بك الظنونا



جنيتَ على العروبة يا فتاها

وألبستَ العلى فيها حدادا

سمعتَ نداءها والحرب تغلي

فلم تحفلْ، كأنك لم تنادا

وجُرمُكَ لا يخففه اعتذار

يكاد يكون جرمًا مستعادا

وشرّ من عداتك أصدقاء

إذا استصرختهم سكنوا حيادا

باهيت بالضرر الذى ألحقته

سرًّا بخصمك، فانزوى مخذولا

فإذا تفرّق عنك من جمّعتهم

حتى يكونوا حصنك المأمولا

فاعلمْ بأنك أنت قد حذّرتهم

فرأوك فى صدق الفعال ضئيلا

إنّ الزعامة خدمة ومحبّة

ليس الزّعامة أن تكون الغولا

- ٣١ -

سخرتُ مِن الورى ألمـًا، وأهوت

على أعمالهم غضبات يأسي

وكنتُ أظنني فيهم غريبـًا

يُجرّعه الزمانُ أمـَرَّ كأسِ

ولما زال عن نفسي غروري

وبان وراءه يومي وأمسِ

لمستُ سخافتي وعرفتُ أنِّي

سخرتُ من الورى ثأرًا لنفسي

— ٣٢ —

دروسك كانت للعلى وجعلتَها

لدعم خرافات وتأييد باطلِ

فلا تتذمرْ من هوانٍ حملتَه

فقد بان ما خبأتَه من حبائلِ

وما العلم تلوين الضلالة بالهدى

ولكنّه أن تهتدي بالفضائلِ

وسيّانِ في عرف الحقيقة عالم

إلى الشّرِ ميّال، وأجهلُ جاهلِ

لا تنتظرْ مني الرضوخ فإنني

متمسك بكرامتي وإبائي

ما للزعامة غير نقدي إن هوتْ

في لُجَّة الأغراض والأهواءِ

إن النظامَ مقدّس، أما الذي

قد سنَّه، فكسائر الأحياءِ

عَزَّ المجاهدُ حين يعبد مبدأ

إن الهوانَ عبادةُ الأسماءِ

لا تنصحوني فنهجي غير نهجكمُ

إلى الزكاة، وإني غير مغبونِ

أواجبي كلما حاولتُ مكرمة

أن لا أقدمها إلّا بقانونِ؟

ومن يصبّر محتاجًا لأطلب عن

شقاء حالته كل البراهينِ؟

من مدّ راحتَه فهو الفقير ولو

حوتْ صناديقه أموالَ قارونِ

أتردّ عن مستقبلي أخطاره

بالطعن في ماضيّ دون حياءِ؟

دعواك عذر الغادرين بمجدهم

وهُداك سمّ الحيّة الرقطاءِ

إني اتصال بين أمسٍ نيّر

وغدٍ تطلّ عليه شمس رجائي

فإذا ظلمت أبي أثرت كوامني

حنقًا، كأنك ظالم أبنائي

- ٣٦ -

سعيتُ، كما يسعى الشريف إلى الغنى

ولبّيت صوت الحق والفن والشعرِ

ولي جسد يلتذُّ باللين والهنا

ويؤلمه ما في المصاعب من عسرِ

ولا أشتهي أموال "فورد" وإنما

أريد معاشًا لا يقدّ من الصخرِ

غنيتُ عن الآداب والخلد والعلى

إذا كنتَ تبغي أن أموت من الفقرِ

وقفتَ تمتدح الباغي وتنصره

محللاً معه ما حرم اللهُ

فخاب ظنّك في استغلال صولته

وضاع جهدك في استثمار جدواهُ

وليس ربحك إلّا من خسارته

فكيف يقبلها أو كيف يرضاهُ؟

يا مسعف الظلم لا تفرحْ بصحبته

فأنت أنت غداً أولى ضحاياهُ

- ٤٠ -

يا من يجادلني بقبضة كفه

أنا قوتي في خاطري وجناني

لو كان رأيك بالرشاد مرصّعًا

لكفاك ما فيه من البرهانِ

وإذا اتخذت من الهراوة حجّة

ساويتَ بين الوَحش والإنسانِ

من رام فرض جداله بنطاحه

فمجاله في ملعب الثيرانِ

ـ ٤١ ـ

حدّدْ مقامك إن أردتَ سلامنا

ماذا يفيدك أن تعيش مداهناء

هذا التضعضع منك عبءٌ فادح

يهوي عليك مغامزًا ومطاعنا

لا يفضحُ الجاني سوى حركاته

إن الظواهر قد تكون بواطنا

لو لم تكن في ذات نفسك خائنا

ما كنتَ ترضى أن تصادق خائنا

— ٤٢ —

يا حاملين إلى الأجانب عطفكم
وبلادكم في قبضة الحدثانِ

إسعافكم ما فيه إنسانيّة
بل فيه معنى الذل والروغانِ

هلاّ بدأتم بالقريب فإنه
أوْلى من الغرباء بالإحسانِ

من ليس يسعف أهله بنزاهة
هيهات يسعف سائر البلدانِ

- ٤٣ -

لا تستهينوا بالذين تصاغروا

لمّا تحرّاهم قضاءٌ منصفُ

لم يظلموا، لكن أعانوا ظالمًا

كانت مخازيه تسيءُ وتتلفُ

قد شجعوه على الضلال بمدحه

وتبتروا بنواله وتترّفوا

للحاكم الطاغي بريك مثله

غيرَ إجرامًا؟: هو المتزلفُ

– ٤٤ –

يلومون بخلكَ زورًا وأنت

الجدير بأفضل ما في الثنا

تصون بروحك ما قد جمعت

وغيرك يبذله بالهنا

وفيك عزاء لكل فقيرٍ

تعذبه حملاتُ العنا

لئن حرم الفقرُ بعضَ المنى

فقد حرمَ البخلُ كلَّ المنى

أردتَ لهم من العمران حظا

يخفف عنهم الجهد التعيسا

فلا تصبرْ على من شذَّ مكرًا

وأعمل فى مخابئه الفؤوسا

ولا تصرفْك عن هدف المعالى

قشور ضمّت الهدفَ الخسيسا

جميل أن تحضّرهم ثيابا

وأجمل أن تهذّبهم نفوسا

أتسمع أغلى المدح فى كل موقف

وتحسبه شكلا صريحا من الغبن؟

وما قمت إلّا بالذى هو واجب

على كلّ ذى نفس تروّت من الفن

فإما انصرفْ عن ساحة المجد خاملا

وإما اعتمدْ درب الجهاد بلا منّ

فما الفضل أن تجنى ثمارًا سقيتَها

بل الفضل أن تسقى لمن رام أن يجنى

لاتستهنْ بثراء في النفوس له

من أحرف الحب والإيثار عنوانُ

فأنْعمُ الله لاتحُصى مظاهرُها

لكنَّ أجملها قلب ووجدانُ

وللتسامح سحر غير محترس

هيهات يعدله جاه وسلطانُ

وكل خطبٍ يظل الحزن مورده

حتى يلطّفه عطفٌ وتحنانُ

— ٤٨ —

ما زال تحت ظلام الجهل منهجنا

حتى تساوى لدينا الماس والصدفُ

كم ماكرٍ بيننا يلقى حفاوتنا

وكم سفيهٍ بآى المدح يُكتنفُ

إنّا نُكبنا بحلمٍ كلّه وَهَن

ياليتنا لم نكن بالحلم نتّصفُ

ما قابل المرء بالتبجيل من سَفلوا

إلّا وقد ضاع فيه الحقُ والشرفُ

يا من تحمّلنا من خطبه منَنًا

جعلتْه في كتاب الهزل عنوانا

ما أنتَ وحدك في الدنيا برمْتها

من سامه الدّهرُ إذلالًا وعدوانا

إن كان حزنك نارًا لا قرار لها

فالحزن أصدقه ما لاع كتمانا

أو كان حزنك ثوبًا فيه برقشة

فاعرضْه في السوق وانشرْ عنه إعلانا

— ٥٠ —

تبّت حياةُ الجامدين تعقــلا

ليس التعقل شرعة الأبطالِ

لولا جنون الطامحين وسعيهم

ما كان ذكر المجد غير خيالِ

خيرٌ من اليأس الذي يوحى الحجى

أمنيةٌ فيها رسيس خبالِ

ما الشرّ آمالاً تناءى حدُّها

الشر أن تحيا بلا آمالِ

تخذتُ من الحسّاد في كل موقفٍ

موازينَ في أحكامها منتهى الرشدِ

إذا غضبوا أدركتُ أنّي موفّق

فتابعتُ سيْري مطمئنا إلى قصدي

وإنْ سكتوا أمعنتُ فيما أتيتُهُ

وأجريتُ في إصلاحه غايةَ الجهدِ

فيا ربِّ لا تعذل شرودي عن الهدى

إذا زال من أكبادهم حَمَأ الحقدِ

- ٥٢ -

لا تجازفْ بمركزٍ هَيّأتْهُ

سنواتٌ من الكفاحِ المجيدِ

كم طموحٍ يفيض منه اضطراب

واضطرابٌ يعيد شدَّ القيودِ

واحذر المعجبين بالغرب

فالغربُ خواء مصفّح بالحديدِ

منتهى الذل أن تحطّم نيرا

ثم تسعى لحمل نيرٍ جديدِ

يا من يكابد في قرارة نفسه

جزعًا من الأيام غير محددِ

ما دمتَ تبتدع المصابَ توهّما

أتراكَ تعجز عن دواءٍ مُسعدِ

النائباتُ عديدة وأشدّها

ما كان من صنعِ الخيالِ الأسودِ

ليس التعاسة أن تعيش بفاقةٍ

إن التعاسةَ أن تخافَ من الغدِ

- ٥٤ -

ذهب التواكلُ طاوياً عهد الشقا

وأتى زمان المجد والأعمالِ

هذى بلادك فى طليعة يقظةٍ

محروسة بحماسة الأشبالِ

إن لم يكن للحق فيك بطولة

فاتركْ عرين الحق للأبطالِ

خسئ الذى يسعى لخدمة قومه

وعتاده وطنية الأقوالِ

- ٥٥ -

مضى الزمن الذى قد عشتَ فيه
ويحسن أن نعدّ له ضريحا
فحسرتُك المغيظة ما يبالى
بها أحدٌ، فلا تُطِل الشروحا
ونحن الآن فى عصر جديدٍ
يحدّد خطونا جسدًا وروحا
فإمّا أن تسيرَ على هُداه
وإمّا أن تموتَ وتستريحا

- ٥٦ -

أتحفته نفحاتِ شعرك مخلصًا

فأشاح عنك ببسمة المتعامي

وأتاه غيرك راقصًا وملاكمًا

فأحاطه بمظاهر الإكرامِ

هذا الزمان، كما ترى، في سوقه

ليست تروج طرائفُ الأقلامِ

بعض العقول لها الرؤوس مخابئ

وعقول بعض الناس في الأقدامِ

زرعتَ في نفسه يأساً بلا سبب
وأنت ترمي إلى تهذيب مظهره

فعاش تحت ظلام الشك مضطرباً
ينأى به خوفه عن عين مبصره

هيهات ينفعه علمٌ يُلقَّنه
ما دام يفقده آلاءَ جوهره

بئس الطبيب الذي يشفي بمبضعه
صدري، ويهوي على ظهري بخنجره

فجاءني بعداء نصفه حسد

ونصفه من ظلام الإفك والتهمِ

فكان صمتي جواباً غير مضطرب

وكان كيدكَ شرّاً غيرَ مُنصرمِ

فلا تعاملْ كما عاملتني أحداً

فقد ينالكَ منه غيظُ منتقمِ

ما خفّ ذنْبُك من تكرارِ فعلته

بل خف ذنبك من صفحي ومن كرمي

حتامَ تبهظنا بعرض عيوبنا

وعيوبنا مكشوفة للرائي

لا تستعيد بلادُنا أمجادها

إلاّ بجهد مكافح بنّاءِ

يا من يقيم على الهراء نضالَه

ويزينه بطرائف الآراءِ

إن الشهامة أن تعدّ لي الدوا

ليس الشهامة أن تصوّر دائي

- ٦٠ -

الفرقُ بينكَ في الشعورِ وبينهم
كالفرقِ بينَ الرُّوحِ والأصنامِ

هم للحطامِ يرونَ تحتَ هبائهِ
هدفَ الوجودِ، وأنتَ للإلهامِ

فاتركْ لهم ترفَ الحياةِ ولينَها
وليتركوكَ براحةٍ وسلامِ

عيشًا تقابلُ بالخيالِ جماعةً
إحساسها شكلٌ منَ الأرقامِ



ما الدار إلاّ ذويها حين تذكرها

فاتركْ زخارفها للعامل الباني

كسرى، إذا رابني، إيوانه طلل

وخيمةُ الحرّ تسوى ألفَ إيوانِ

وأى معنى لبيتٍ أنت رافعه

وصرحُ قومك مهدوم بلا شانِ؟

خير من القصر فيه المجد منصدع

كوخ يشد بإحساس ووجدان

- ٦٢ -

جعلتَ من الوظيفة جوَّ صيدٍ

يجول المكر فيه والضلالُ

وما كانت سوى جهدٍ كريم

يرافق عزَّه الربحُ الحلالُ

فلا يخدعْك ما أحرزتَ منها

فما أحرزتَ يَرقبه الزوالُ

وقد تعلى الوظائف حامليها

كما تعلى المشانقَ الحبالُ

- ٦٣ -

تذمّر من صرف الزمان تحذرا

إلى ما يلاقي من عوارض نحسهِ

وكيف يصيب الرغدَ والسعدَ حاسدٌ

تتيهُ به البغضاءُ في قفر يأسهِ؟

يريدُ من الناس السخاءَ تبرعًا

بأموالهم، وهو الضّنين بفلسهِ

أخفّ العمى أن لا يرى المرءُ غيرَه

وأصعبُه أن لا يرى غيرَ نفسهِ

- ٦٤ -

سلّمتَ أصحابَ السخافة مبدأ

هو عــزة وحضــارة وهنــاءُ

فإذا بــه ينهار تحت دعايةٍ

عمياء، فيها غــيرةٌ هوجــاءُ

طيبُ الطويّة لايكون رسالةً

بُرهــانها ماتصنع الغوغــاءُ

والحقّ ليس خصومه أعــداؤه

لكنهم أنصــارُهُ الجهــلاءُ

مللنا من وعود ليس فيها

وإنْ صدقتْ، سوى الأمل الكسيفِ

تمنينا بدنيا منْ فتوح

فانعشْنا بأثمان السيوفِ

فأقصى ما نحنُّ إليه عهدٌ

يحرّرنا من الفقر المخيفِ

وما معنى الكرامة والمعالي

إذا عشنا عبيداً للرغيفِ؟

- ٦٦ -

لا يخلق الإطراءُ عفّةَ راهبٍ

إن لم تكن في النفس عفة راهبِ

ماذا يفيدك أن يعدّكَ خادع

علمَ البيانِ، وأنت أسخفُ كاتبٍ؟

إني أراك تجدّ غير موفّق

لتغش ذاتك غشَّ طفلٍ لاعبِ

سيغيب وعيك تحت ذمٍ صادقٍ

مادمت تثمل بالمديح الكاذبِ

أيها الناس لو عرفتم فؤادى

لشكرتم إخاءه والوفاءَ

أنا لولا محبّتى ما جعلتُ

النصحَ دأبى، ولا حملتُ العناءَ

فرقوا بين غضبة تحمل النفعَ

وأخرى تحرّك البغضاءَ

وقِحٌ من يحارب الناسَ، لكن

مصلحٌ من يحارب الأخطاءَ



قامت تطالب بالإصلاح وادعةً

وتنصر الوطن المنكوب والدِّينا

فثِرتَ حتى حسبنا الأفق منفلعًا

والأرض تنبت زقُّومًا وغسلينا

يا ناشر النصر أقوالاً مزخرفةً

إنّا نريد على القول البراهينا

هذا الصراخ الذى أرسلتَه غضبًا

لو كان في الحرب لم نخسر فلسطينا

- ٦٩ -

حمَّلتَ قلبك ما في الحقد من نصبٍ

فبات عقلك بالظلماء مشتملا

وعشتَ وحدك في دنيا مهدمة

تكابد الغم والحرمان والفشلا

الذنب ذنبك ، فانظر فالحياة لها

وجه أنيس ووجه يبعث الوجلا

والمرء أنت . تراه حين تبغضه

ذئبًا ، ويصبح إن أحببته حَمَلا



أشقى لبؤس البائسين كأنني

أنا من تسبب في شقاءِ الناسِ

ما رنَّ في سمعي أنينُ مُلوَّعٍ

إلّا جرعت دموعه في كاسي

هدمتْ حدودَ الأرض إنسانيَّتي

وسمتْ على الألوان والأجناسِ

فإلى متى يا ربِّ أحتمل الأسى ؟

شرُّ المواهبِ رقَّةُ الإحساسِ

عزوتَ إلى الورى شرّ النوايا

تؤكدها فعالهم الذّميمهْ

ولم تعثرْ على سمحٍ وفيٍّ

تحلّى بالسجايا المستقيمهْ

وما بالغتَ عن حذرٍ، ولكن

لتشفي بعض غلّك بالشتيمهْ

تخال الناسَ كلهمُ لئامًا

لأنك أنت ذو نفسٍ لئيمهْ

تشكو العراقيل التي لابد من

تذليلها حتى تحوز المطلبا

وتغضّ طرفك مهملاً ما نلت من

خير عميمٍ دون أن تتعذبا

ولعلّ في تلك المصاعب شارة

للعمر تجعله بهيجاً طيّبا

شر من التعب الذي يوهي القوى

سأمٌ يحيل سناء صبحك غيهبا

قالوا بلغنا من العمران منزلةً

ما كان يبلغها وهمٌ وتخمينُ

فقلت هذي قشورٌ غيرُ مثمرةٍ

وكلّ قيمتها نقشٌ وتلوينُ

إن التبجح بالآلات مهزأة

ما دام في الناس مظلوم ومغبونُ

حضارة المرء مشكوك بصحتها

حتى تزول من الدنيا القوانينُ

إني أقابل بالرثاء مقطّبا

ومناهل النعماء ملء حياته

الروض يبسم بالأزاهر حوله

ويداه باحثتان عن حشراته

كم فاشلٍ في الناس كان عبوسه

سببًا إلى خذلانه وأذاته

كل امرىء جعل التجهم عادة

فيه خفيٌّ تقززٍ من ذاته